«٧»

سالم بن إدريس الحبوظي

أسرته - استيلاؤه على حضرموت - عماله من آل كثير - قحط ومجاعة - هجومه على الشحر - الحبوظي وبنو رسول - حضرموت بعد الحبوظي - أوقاف الحبوظي - بداية السلطنة الكثيرية

❖ أسرته:

الأمير سالم بن إدريس بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الحبوظي لم يكن حضرمياً بالمولد، فقد ولد ونشأ وعاش في ظفار، ولكنه ينتسب إلى أصل حضرمي، كان جده الثالث محمد بن أحمد الحبوظي عاملاً من عمال السلطان محمد بن أحمد الأكحل أمير مرباط الواقعة على الساحل شرقي مدينة ظفار، وكان يلي بعض شؤون الأكحل التجارية فقط، فلما مات الأكحل هذا ولم يترك عقباً ولم يكن في أقاربه من كان متأهلاً للملك تولى الأمر بعده محمد الحبوظي الذي وجد في نفسه القدرة على تولي السلطنة والقيام بالأمر.

فلما مات محمد هذا تولى السلطنة بعده ابنه أحمد الذي بنى مدينة ظفار الحديثة سنة ٦٢٥هـ، وأمر أهل مرباط وهي ظفار القديمة أن ينتقلوا إليها، وكان السلطان أحمد جواداً شهماً حسن السيرة، وهو أول من ملك ظفار من الحبوظيين رسمياً بعد ولاية أبيه التي كانت كتمهيد لانتقال الإمارة إلى خلفائه، وقد تولى الأمر بعد وفاته ابنه محمد ثم إدريس بن محمد ثم

سالم بن إدريس الذي عقدنا هذا الفصل للحديث عنه.

❖ استيلاؤه على حضرموت:

كان الأمير سالم بن إدريس جم المطامع طموحاً إلى السيطرة شديد الشغف بتوسيع رقعة مملكته، وقد عظم شأنه في ظفار وقويت شوكته، ولما أنس من نفسه القدرة صَمَّم على غزو حضرموت والاستيلاء عليها، وكانت الفوضى التي شملت البلاد الحضرمية في ذلك العهد تشجع الطامحين على الإدلاء بدلوهم بين الدِّلاء.

والمصادر التي بين أيدينا لا تذكر المعدات التي أعدها لهذا الغزو، ولا تتعرض لتفصيل الحوادث الحربية وما يتصل بها، وكل ما ذكرته بهذا الصدد أنه قدم حضرموت واشترى مدينة شبام سنة ٦٧٣هـ وجعلها مركزاً لنفوذه وقاعدة لبسط سلطانه، ثم ترك أخاه موسى بن إدريس في شبام، وأخذ يهاجم مدن الوادي وقراه، فاحتل سيئون ودمّون والعجز والغيل، وضرب الحصار على تريم وكان فيها أميرها عمر بن مسعود بن يماني، وأقام محاصراً لها عدة أشهر اشتدت الفتنة أثناءها على تريم، وخلت البلاد من أهلها وعم الخراب حتى أنه لم تقم في تريم جمعة أثناء تلك المدة.

وحاول ابن مسعود أن يستنجد بالغزّ فذهبت محاولته سدى، فقد أرسل ابنه يماني أثناء الحصار؛ ليجند منهم جنداً للدفاع عن تريم فلم يفلح في مهمته، ومع ذلك فقد صمد إلى النهاية حتى يئس الحبوظي وانقلب دون أن يظفر بطائل، حيث عاد إلى شبام فاجتمع بأخيه موسى، ثم كرّ عائداً إلى ظفار.

❖ عماله من آل كثير:

كان آل كثير قد شرعوا منذ أواخر القرن السادس الهجري يتناجون فيما بينهم للقضاء على جميع السلطات الفوضوية في البلاد وتشييد دولة كثيرية على أنقاضها، وطفقوا يجمعون حولهم الأنصار ويستعينون بشتى

الوسائل للوصول إلى هدفهم.

ولما قدم الحبوظي إلى حضرموت انتهزوا هذه الفرصة، فأظهروا له الولاء والطاعة وقاموا بالدعاية له وترويج سياسته وتولّوا إدارة شؤونه العسكرية، فلما عاد إلى ظفار مقر مملكته أناب عنه في قرى حضرموت آل كثير يحكمون باسمه ويصولون بسلطانه، وكان ذلك سنة ٦٧٥هـ، وقد توفي في هذا العام علي بن عمر بن كثير الأول رئيس العائلة الكثيرية التي كانت تمهِّد للاستيلاء على الحكم.

قحط ومجاعة:

في حدود سنة ٦٧٦هـ انتشرت في حضرموت مجاعة شديدة بسبب قلة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها نتيجة للقحط والجدب الذي عم البلاد، فقدمت على الحبوظي وهو في ظفار وفود من حضرموت يشكون إليه ما حل بهم ويطلبون منهم المعونة، وعرضوا عليه مقابل ذلك حصونهم وقلاعهم، فاهتم بالأمر وخرج بنفسه معهم إلى حضرموت وأعطاهم جميع ما يطلبون لتخفيف المجاعة، وسلموا إليه الحصون التي كان يعتبرها من أهم الوسائل لبسط نفوذه وتقوية مركزه في البلاد، وعاد إلى ظفار مطمئناً إلى نجاح هذه الخطة التي هيأتها له الأقدار.

ولكن الرجل لم تكن لديه إدارة منظمة في حضرموت، ولا قوة كافية من الجند للمحافظة على المناطق الخاضعة له، فكان يكتفي بشيء من الرسوم، ثم يترك البلاد وشأنها جاعلاً عليها عاملاً من قبله لا يلبث أن يستقل بالحكم فيها أو يأتي من يطرده عنها، وكان بُعْدُ المسافة وصعوبة المواصلات في ذلك العهد من بين الأسباب التي جعلت الحبوظي لا يستطيع المحافظة على أملاكه في حضرموت، ولذلك فقد رأى أصحاب الحصون التي سلموها له أثناء المجاعة أنهم في حاجة إلى حصونهم وأنهم لن يجدوا كثيراً من الصعوبات في استرجاعها بالقوة، فمالوا عليها ميلة

واحدة واستردوها، ولم يستطع الحبوظي أن يصنع شيئاً فاكتفى بالندم والأسف على ما فرط فيه من جهد ومال، وما خسره من نفوذ وسلطان.

❖ هجومه على الشحر:

كان الحبوظي - كما قلنا سابقاً - واسع المطامع بعيد الهمة، فكان ينتهز كل فرصة لبلوغ آماله وتنفيذ أحلامه، وقد أسرع عندما بلغه استيلاء الغز على الشحر سنة ٦٧٧هـ إلى إعداد العدة لغزوها وتخليصها من «الغُزّ» والاستيلاء عليها وضمها إلى أملاكه، وكان راشد بن شجعنة أمير الشحر قد فرَّ هرباً إلى الجبال عقب الهجوم الذي قام به الغز على مقر إمارته.

وجهز الحبوظي من ظفار حملة بحرية وبرية حسب أنها كافية لتنفيذ خطته التي رسمها لاحتلال الشحر، ولما وصلت قواته إلى ضواحي المدينة خرج الغز للقائه فدارت المعركة بينه وبينهم في البر وانتهت بفشله وانهزامه حيث عاد بعد ذلك إلى ظفار.

❖ الحبوظي وبنو رسول:

حدث أن أرسل الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول ملك اليمن سفيراً له إلى ملك فارس بهدية ثمينة بطريق البحر وصحبه جماعة من التجار، فصرفهم الريح عن طريقهم ورمى بسفينتهم إلى ساحل ظفار فألقى القبض عليهم سالم بن إدريس واستولى على ما معهم من الهدايا والأموال، ونحن لا نعلم أي سبب مشروع يبرر هذا التصرف من قبل الحبوظي، وإن كان التنافس على الحكم في حضرموت هو مصدر الجفاء والاحتكاك بين الرجلين على ما يظهر.

وانتهى خبر الحادث إلى الملك المظفر فكتب إلى الحبوظي يقول له: إنه لم تجر عادة بهذا ونحن نجلك عن قطع الطريق، وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصحبة والجميل ولا نعجز عن مكافأتك على ما فعلت ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ولكنا نتأدب بأدب القرآن،

فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ .

فغضب الأمير سالم بن إدريس ورد على ملك بني رسول رداً عنيفاً افتتحه بقول الله عز شأنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾، وكان في جملة ما قاله: هذا الرسول فأين العذاب؟ وبذلك توترت العلاقات بينهما واتجه الفريقان إلى تحكيم السيف.

وعلم الملك المظفر بأن الحبوظي هو الذي شجع راشد بن شجعنة حاكم الشحر على خلع طاعة بني رسول، وكان يخضع لسلطانهم ويدفع إليهم خراجاً سنوياً، كما بلغه أن الحبوظي يفكر في الهجوم على عدن، ولذلك أعد الملك الرسولي حملة عظيمة من البحر والبر تكفي لمحو سلطان الحبوظيين والقضاء عليه، فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذي غزا ظفار كان مؤلفاً من سبعة آلاف من المشاة وخمسمائة فارس، وكانت السفن في البحر تسير محاذية لسير الجيش في البر تحمل العتاد الحربي وما يحتاج إليه الجنود من أطعمة ومتاع ونقود.

وخرجت فرقة من جيش الرسولي قوامها ثلاثمائة فارس من صنعاء متجهة صوب حضرموت الداخل في طريقها إلى ظفار، وقد اصطدمت في حضرموت بقلاع الحبوظي وحلفائه، ولم يكن بحضرموت من يوالي الملك المظفر سوى ابن شماخ النهدي وعمر بن علي بن مسعود، ويقال بأنه لم يصل من هذه الكتيبة إلى ظفار سوى مائة وثلاثة عشر فارساً.

وتكامل الجيش الرسولي والتقى بعضه ببعض عند «ريسوت» بالقرب من ظفار، وخرج الأمير سالم بن إدريس في جيشه متأهباً للقائهم وصَفَّ لهم على بُعْد من المدينة، وانتشرت إشاعة بأن نجدة للحبوظي قد وصلت من حضرموت والهجرين، فلم يهتم بها قائد الجيش الرسولي شمس الدين ازدمر اتكالاً على وفرة عدد جيشه وكثرة أسلحته، ونشبت المعركة واحتدم

القتال وصمد كل فريق للآخر، ثم كرت فرسان الجيش الرسولي وجالت جولة فرقت جنود الحبوظي وحلت بهم الهزيمة وانكشفت المعركة عن قتل سالم بن إدريس في ثلاثمائة من أصحابه وأسر ثمانمائة منهم، وطلب سالم بن إدريس بين القتلى فوجدوه قد قطع رأسه فقبر جسده بدون رأس.

ودخل شمس الدين ازدمر بجيشه إلى ظفار في يوم الأحد ٢٨ رجب سنة ٦٧٨هـ، وقبض على كافة بني الحبوظي وحملهم إلى زبيد، حيث ظلوا هناك يعيشون على الصدقات السلطانية، حتى انقرضوا أو اندمجوا في أهل اليمن.

حضرموت بعد الحبوظي:

عقب الاستيلاء على ظفار أناب الملك المظفر عنه بحضرموت الأمير محمد بن محمد بن ناجي فأقام فيها برهة، ثم عاد إلى اليمن وقد تسلمت جنود المظفر مدينة شبام في رمضان سنة ٦٧٨هـ بعد مقتل الحبوظي، وظلت حضرموت خاضعة لبني رسول الذين امتد ملكهم في اليمن إلى القرن التاسع الهجري، إلا أن هذا الخضوع ربما كان اسمياً في أكثر الأحيان وفي أغلب المناطق، فالمتتبع للتاريخ الحضرمي في هذا العهد يجد أن سلطات محلية متعددة كانت تحكم فيه بأمرها دون اللجوء إلى سلطة عليا.

وذكروا أن محمد بن محمد بن ناجي - الآنف الذكر - قيل له عندما عاد إلى اليمن: كيف عاملت أهل حضرموت؟ قال: لما دخلت شبام راغمني منهم رجل هو أعظمهم حالاً وجمع لحربي عسكراً فطاولته حتى أنفق جميع ما عنده ونفد كل ما بيده من ناطق وصامت، ولما لم يجد ما يدفعه لعسكره وصلني بنفسه حتى أناخ بعيره على باب داري ودخل الحاجب يستأذن له فأذنت، فلما دخل قال: اعلم أني لما أردت الخروج إليك أشهدت كافة أهل بيتي على أني في ذمة ابن رسول ثم في ذمتك، فقلت له: هما لك واكرمته وأحسنت إليه، وجرى على ذلك النمط أربعة

نفر يؤدون أنفسهم إليّ، ثم لم يرفع أحد رأسه من أهل حضرموت بعد ذلك.

وكانت مدينة الهجرين قد خضعت لبني رسول قبل فتح ظفار، فقد هاجمتها الكتيبة التي قدمت من صنعاء مارة بداخل حضرموت، ثم سلمتها بعد الاستيلاء عليها لابن شماخ النهدي الذي سبقت الإشارة إلى أنه من الموالين لبني رسول.

❖ أوقاف الحبوظي:

تحكى عن الأمير سالم بن إدريس الحبوظي أحاديث غريبة جداً عن ولعه بالصدقات ورغبته الشديدة في أن لا ينافسه في كثرة ما ينفق أحد، وبصرف النظر عما يمكن أن تحمل هذه الأخبار من مبالغات فإنها تدل على أن الرجل كان يحمل نفساً كبيرة وقلباً عطوفاً على الفقراء والمحتاجين وذوي الحاجة، والدليل الخالد الباقي إلى الآن على هذه الخلال الحميدة هو هذه الأوقاف الكثيرة التي تصدق بها السلطان الحبوظي من أراضٍ زراعية واسعة ونخيل في مقاطعات وادي عمد وحريضة وهينن وحورة والهجرين ودوعن ورخية وغيرها، وتقدر قيمة هذه الأوقاف بعشرات الآلاف تصرف غلتها على المحتاجين من الغرباء والمنقطعين وأبناء السبيل، ولا تزال هذه المكرمة الخالدة إلى الآن معروفة بين الحضارم بصدقة الحبوظي.

ومن المؤسف أن هذه الأوقاف الواسعة ليس لها إدارة موحدة للإشراف عليها وتنظيم استغلالاها والانتفاع بها في وجوه البر، وحبذا لو فكرت الحكومة في حماية هذه الأوقاف وحفظها.

❖ بداية السلطنة الكثيرية:

بعد قتل الحبوظي في ظفار تشبث آل كثير بما في أيديهم من البلدان التي كانوا يحكمونها باسم الحبوظي، وضاعفوا من جهودهم في التقرب

إلى رجال الدين وكسب مودتهم، وكان الشيخ محمد بن عمر باعباد الذي أسس الغرفة سنة ٧٠١هـ وابنه عبدالله القديم في مقدمة الذين لا يقصرون في نصرة آل كثير وتنشيطهم وترويج مشروعهم بين الدهماء، علاوة على ما يقوم به العلويون من الجهة الأخرى من حسن الدعاية وتمهيد السبيل.

وأصبحت أغلبية قرى السليل خاضعة للنفوذ الكثيري في بداية القرن الثامن، ما عدا قرية بور فقد رفضت قبيلة آل بانجار تسليمها ولم تفلح الوساطات الكثيرة للوصول إلى حل سلمي، فهجم آل كثير عليها واحتلوها بعد أن قتلوا جماعة من آل بانجار سنة ٧٢٣هـ، وما انصرم القرن الثامن حتى كانت الدعاية لآل كثير قد خطت خطوات واسعة وأصوات المعارضين من طلاب السلطة خافتة، وأخذ رؤساء آل كثير يتقربون إلى العلماء وأهل الفضل ويقبلون شفاعاتهم حتى تمنى كثير من الناس أن تشملهم رعاية السلطة الكثيرية.

وفي سنة ٨١٤هـ غادر علي بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن علي بن عمر بن كثير بلدة بور مسقط رأسه، واتصل بالشيخ علي بن عمر باعباد وغيره من رجال الصلاح، وكانوا يعدونه بالاستيلاء على ظفار وجميع بلدان حضرموت فتشجع علي بن عمر بذلك، وشرع يذلل العقبات ويزحزح الحواجز ويحارب ويغزو حتى استتب له الأمر واستحق لقب سلطان، وهو لذلك أول من نصب سلطاناً على حضرموت من آل كثير التي كانت إلى عهده متفرقة بين ولاة كثيرين، وهو أول من حول القبيلة الكثيرية إلى دولة منظمة.

وتوفي السلطان علي بن عمر سنة ٨٢٥هـ بعد أن دانت له ظفار وشبام وكثير من مدن الوادي وقراه، وبعد أن أمضى أكثر حياته في قمع الحركات المعادية وإخضاع الثوار، وقد بقيت ظفار في يد الدولة الكثيرية الأولى إلى أن أفل نجمها منها سنة ١١٣٠هـ.

وهكذا برزت السلطنة الكثيرية إلى الوجود بعد محاولات وتمهيدات وتضحيات، وسنرى في تراجم الشخصيات الكثيرية الآتية ما مر بهذه الدولة من تطورات وتقلبات وما صاحبها من حوادث وتغيرات.